مسكويه

أبو علي الخازن (*)

الأديب ، الفيلسوف ، المؤرخ ، الحكيم ، القصصي

توفي (٤٢١ هـ) — (١٠٣٠ م)

للأستاذ أحمد سامح الخالدي

نشأ في كنف آل بويه ، وهم على رأي ابن طباطبا في الفخري من الفرس وليسوا من الديلم ، وإنما سموا بالديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم ، وهي في الناحية الجنوبية الغربية من بحر قزوين ، كثيرة الأشجار والغابات ، غزيرة الأمطار ، يشتغل أهلها بصيد الأسماك والتحطيب .

وقد سميت هذه العائلة بآل بويه ، نسبة إلى بويه جدّ العائلة ومؤسسها ، وكان صياد سمك ، وكان أحد أبنائه الثلاثة معز الدولة (أبو الحسين أحمد) يقول بعد تملكه البلاد « كنت احتطب الحطب على رأسي » .

نشأت هذه العائلة المالكة من هذا الأصل الوضيع ، واستولت على الخلافة العباسية ، فعزلت الخلفاء وولتهم ، واستوزرت الوزراء وصرفتهم ، وانقادت لأحكامها أمور بلاد العجم وأمور العراق . وملكوا مئة عام من ٣٢٢ هـ إلى ٤٢١ هـ حين انقرض ملكهم وهي السنة التي توفي فيها مسكويه ، ربيبهم ، وخازنهم ، ومؤرخهم بل صديقهم الذي عاش في نعمائهم وترعرع في قصورهم(١) فكان نعم الصديق الحكيم المشير .

تتلمذ على الرئيس أبو علي ابن سينا (توفي ٤٢٨ هـ ١٠٣٦ م) ولم يقدر الرئيس مواهبه ، وليس هو بأول نابغة يخيب ظن الأساتذة فيه . وقد ذكره الرئيس في بعض كتبه قال « فهذه المسئلة حاضرت فيها أبا علي بن مسكويه فاستعادها كرات وكان عسر الفهم ، فتركته ولم يفهمها على الوجه » . هذا معنى ما قاله ابن سينا لأنني كتبت الحكاية من حفظي (كذا يقول ابن القفطي في أخبار الحكماء ص — ٢١٧) .

أما أبو حيان في كتابه الامتاع فقد وصفه بقوله (وأما مسكويه ففقير بين أغنياء ، وغبي بين أذكياء (١) ؟) (كذا) لأنه شاذ ، وإنما أعطيته في هذه الأيام صفو الشرح لإيساغوجي(٢) وقاطيغورياس(٣) من تصنيف صديقنا في الري(٤) (معجم الأدباء لياقوت ج ٥ — ص ٥) .

واتصل مسكويه بكبار أدباء زمانه ومنهم ابن العميد(٥) واتخذه هذا خازناً لكتبه كما ذكره أبو حيان في كتاب الوزيرين ، وراسل بديع الزمان الهمذاني(٦) وتدرج حتى صار خازناً للملك عضد الدولة بن بويه وكان مأموناً لديه أثيراً عنده وله مناظرات ومحاضرات ...

على أن مسكويه لم يكن أديباً بارعاً فحسب بل كان مؤرخاً ممتازاً فلقد ألف كتابه الشهير « تجارب الأمم » بلغ فيه إلى بعض سنة ٣٧٢ هـ وهي السنة التي مات فيها عضد الدولة بن بويه صاحبه وهو كتاب جميل كبير يشتمل على كل ما ورد في التاريخ مما أوجبته التجربة وتفريط من فرط وحزم من استعمل الحزم(٧) .

ولم تقتصر جهوده على الناحيتين الأدبية والتاريخية بل كان « فاضلاً في العلوم الحكمية متميزاً فيها خبيراً في صناعة الطب جيداً في أصولها وفروعها وله من الكتب كتاب الأشربة وكتاب الطبيخ(٨) » .

ويقول عنه ياقوت في معجم أدبائه(٩) (ويظهر أنه كان

(*) أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب مسكويه (أو ابن مسكويه) الرازي الأصل ، الأصفهاني المسكن والخاتمة ، كان مجوسياً فاسلم .

(١) الفخري ص ٢٤٩ — ٢٥١ .

(١) كذا في الأصل ولعله قصد وغبي بين أذكياء .

(٢) المدخل إلى كتاب المنطق لأرسطو .

(٣) هو أحد كتب أرسطو المنطقية الثلاث ، وهي قاطيغورياس ، وباري أرميناس ، وأنولوطيقا .

(٤) هو أبو سليمان المنطقي ، كان ممتزلا من أصحاب أبو حيان التوحيدي

(٥) الأستاذ الرئيس أبو الفضل محمد بن الحسين العميد كاتب المشرق ووزير عضد الدولة البويهي صاحب طريقة الشعر المنثور توفي ٣٦٠ هـ .

(٦) أبو الفضل أحمد بن الحسين الكاتب المترسل والشاعر المبدع صاحب المقامات المشهورة - نشأ بهمذان ونبغ في الأدب توفي (٣٩٣ هـ)

(٧) طبعت الجزء الأول لجنة جب . كما طبع الجزءان الخامس والسادس منه .

(٨) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ج ١ — ٢٤٥) .

(٩) ج ٥ — ص ٥ .

مشغولا بطلب الكيمياء مفتوناً بكتب أبي زكريا وجابر بن حيان فلم يكن يلتفت لغير ذلك . وقد قطن العامرى الرى خمس سنين يدرس ويملى ويصنف ويروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ويظهر أنه ندم على ذلك وأنبه أصدقاؤه . ومع هذا فهو ذكى حسن الشعر ، نقى اللفظ ، ويظهر أنه كان بخيلاً) !

وقد ترك لنا صاحب الترجمة كتباً قيمة فى الأخلاق والتربية والفلسفة منها « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » و« كتاب تهذيب الأخلاق » فى التربية ، و «الطهارة فى تهذيب الأخلاق» و« الفوز الأصغر » و « الفوز قابس » وكتاب « الفوز الأكبر » و « كتاب ترتيب العادات » الخ .

وله وصية أنهاها بهذه التذكرة وهو يدعو للعمل بموجبها ، وهى تشتمل على أرقى المثل العليا وأسماها ، ونلخص لنا فلسفته فى الحياة ومذهبه فى السلوك . وهى خمسة عشر باباً :

١ — إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات والصدق على الكذب فى الأقوال والخير على الشر فى الأفعال .

٢ — كثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ...

٣ — والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد حتى ينجزها . وأول ذلك ما بينى وبين الله جل وعز .

٤ — وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال[1] .

٥ — ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك .

٦ — والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل .

٧ — وحفظ الحال التى تحصل فى شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال .

٨ — والأقدام على كل ما كان صواباً .

٩ — والإشفاق على الزمان الذى هو العمر ليستعمل فى المهم دون غيره .

١٠ — وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغى .

١١ — وترك التوانى ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد اتلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم .

١٢ — وحسن احتمال الغنى والفقر ، والكرامة والهوان بجهة وجهة .

١٣ — وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ، ليقل الطغى والبغى .

١٤ — وقوة الأمل وحسن الرجاء .

١٥ — والثقة بالله عز وجل وصرف جميع البال إليه .

هذه الشخصية النابغة ، قد تركت لنا آثاراً خالدة فى الأدب والتاريخ ، والكيمياء والطب والحكمة والأخلاق والفلسفة ، تشتمل على ناحية مجهولة لم يشر إليها الكتاب قبل الآن على ما نعلم ، تلك هى ناحية القصص .

فقد جاء فى أخبار الحكماء لابن القفطى[2] ، أن من تصانيف ابن مسكويه كتاب أنس الفريد وهو أحسن كتاب صنف فى الحكايات القصار والفوائد اللطاف . ويصف لنا ياقوت فى معجم أدبائه هذا الكتاب النادر[3] فيقول « كتاب أنس الفريد ، مجموع يتضمن أخباراً وأشعاراً وحكما وأمثالاً غير مبوب » .

وقد لفت نظرى هذا الكتاب ، وخصوصاً وإن ابن القفطى يقول عنه أنه أحسن كتاب صنف فى الحكايات القصار ، والفوائد اللطاف .

ولما كان هذا النوع من الأدب العربى نادراً أخذت أفتش عن هذا الكنز الضائع فى مكتبات فلسطين ومصر ، والآستانه وإيران الخ . واستعنت بقناصل تلك الدول وحكوماتها ولكن جهودى المتكررة لم تثمر مع الأسف حتى الآن .

إن الذى يكتشف لنا « كتاب الأنس الفريد» لابن مسكويه الخازن إنما يعثر على كنز ثمين ، ويضيف ثروة أدبية قيمة إلى تراث السلف الصالح .

أحمد سامح الخالدى

(١) استرسل فى الكلام انبسط فيه واسع ، وإليه ، انبسط إليه واستأنس ...

(١) ص ٢١٧ .
(٢) ج ٥ ، ص ٥ .

اطلب كتاب

مبادىء فى القضاء الشرعى